12me Année No. 551

Lundi - 24 - 1 - 1944

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ١٥ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٥٥١ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٨ المحرم سنة ١٣٦٣ — الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٤٤ » السنة الثانية عشرة

في التأني الســـلامة

للأستاذ عباس محمود العقاد

قلنا في كتاب « الصديقة بنت الصديق » أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تروى كثيراً من الشعر ... « وكانت تحفظ من شعر عروة بن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه في موقعه ، كما قالت وهي ترى النبي عليه السلام يتندى عرقاً في يوم قائظ وقد جلس يصلح نعله : لو رآك عروة لكنت المعنى بقوله :

فلو سمعوا في مصر أوصاف خده
لما بذلوا في سوم يوسف من نقد
لواحي زليخا لو رأين جبينه
لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

إلى آخر ما جاء في ذلك الكتاب

وقد رأينا في العدد الأخير من مجلة الثقافة كلاماً بتوقيع « أحمد محمد شاكر » يقول فيه :

« أما هذه القصة فقد أطلت البحث عنها في المصادر المحترمة من كتب الحديث والسير والتاريخ حتى أتعبني البحث ، ثم لم أجدها . وهذا النوع من الكاتبين لا يتورعون عن تكذيب الأحاديث الصحيحة المروية في كتب السنة الصحاح والتي رضيها أهل العلم بالحديث : يكذبونها إذا لم توافق آراءهم وما يدعون إليه

الفهـــرس

٢٢ • ٦

من نظريات يتناولون فيها قواعد الإسلام ، ويزعمون أنهم يتيمون بذلك ما يسمونه طرق النقد الحديث ، ثم يحكون عن رسـول الله وعن أصحابه الأكاذيب لا يرون بحكايتها بأساً وينسبونها إليهم نسبة جازمة ، كأنها من الحديث الصحيح لا يتحرون ولا يبحثون ، إنما هو سواد في بياض ، يضـل به الناس وهم يشعرون أولا يشعرون . . . أنا لا أجيز لنفسي أن أتهم الـكاتب الجريء بأنه اخترع هذه القصة من عند نفسه ، ولـكني أظن أنه رآها في كتاب من كتب السمر ... »

إلى أن يقول :

« الذي نعرفه من التاريخ الصحيح في أمر عروة بن الزبير أنه ولد في آخر خلافة عمر سنة ٢٣ وقيل بعد ذلك . . . » إلى غير ذلك من أشباه هذا الـكلام الذي ينم قليله على كثيره

وكان بودنا أن ننقل هنا كلمة الـكاتب بحذافيرها لتشهد عليه وعلى طويته وبواعث نقده ، لولا أننا نطيل في غير طائل . وإن الاجتزاء بمـا نقلناه كاف للدلالة على دخائل الصدور وكوامن النيات .

فأوجز ما نقول وأصدقه أن الجرأة كل الجرأة هي في إقدام الـكاتب على مثل هذا الـكلام وهو يضع نفسه موضع الحـكم الفصل في أخبار السيرة ومراجع الأحاديث والمحدثين مع قصور المراجع التي عنده وقصوره في البحث عنها ، واستيفاء مواضع الاستقصاء منها ، في مسألة بعينها هي معروضة له ومبسوطة بين يديه

ولا معابة على أحد أن يفوته بعض المراجع التي لا تفوت غيره ، ولـكن المعابة كل المعابة أن يبحث عنها عامداً فلا يهتدى إلى طريقها ، وهو يتحدى ويناجز ويتهم ويماجز ، وبه ما به من هذه اللهفة على إظهار العلم النزير وإغلاق موارد البحث دون الباحثين

تلك معابة أي معابة على من يحسب أنه يتحرى وحده ويبحث وحده مكتفياً بما في يديه غير مستزيد مما عنده . ثم هو يبسط يديه معاً إلى أقصى مداهما فلا تبلغان ميسور ما في الأيدي من المراجع في باب السير وكتب المحدثين

فليعلم هذا الـكاتب — الجريء — إذن أننا لم نخترع هذه القصة من عندنا ، وأننا لم نرها في كتاب من كتب السمر ولا في كتاب من الـكتب التي يعوزها الاحترام ؛ لأن شرح شمائل الترمذي ليس اختراعا لمؤلف « الصديقة بنت الصديق » ولا هو حكاية من حكايات الأسمار ، ولا هو مهزلة يعوزها احترام مثله ، وهو لا يرتقي إلى منزلة التلميذ المستفيد بين أصغر شراح الترمذي في أخبار السيرة وعلم الحديث

فشمائل الترمذي وشروحه من أشهر كتب السيرة التي يتسامع بها العلماء الواصلون والشداة المبتدئون ، وهذه القصة مذكورة في شرح الشمائل للعلامة محمد بن قاسم جسوس يراجعها في الجزء الأول صفحة ٢٩ من الطبعة المصرية وفي صفحة ٤٠ من الطبعة الخارجية ، ليعلم أننا لا نخترع ولا نعتمد على كتب الأسمار ، وأنه لا يزال يتهجى في مراجعة فهارس الـكتبات ليعلم أين يكون البحث وكيف يكون الاستقصاء ، ودع عنك المطولات والمبسوطات ، ودع عنك الشروح والأصول

وظاهر من كلام هذا الـكاتب الجريء الذي نقلناه والذي لم ننقله أنه يتتبع ما ألفناه من كتب « العبقريات » واحداً بعد واحد ، وأنه على اللهفة التي ما بعدها لهفة للعثور على هفوة هنا أو نقيصة هناك ، ثم يطلق عقال الحفيظة ليثور ويفور ، ويبلغ قصاراه من الثوران والفوران

فإذا كان قد أضنى نفسه بحثاً في خمسة كتب أصدرناها من سلسلة العبقريات وما إليها فلم يخرج منها — مع تلك اللهفة وذلك التجني — بغير تلك القصة ، فهل في وسعه أن يشهد لباحث في الشرق أو في الغرب بتحقيق أوفى من هذا التحقيق ، وفضل أشرف من هذا الفضل ، وعناية أكبر من هذه العناية ؟

أين هو الباحث الذي كتب في السيرة أو غير السيرة ، وبين المتقدمين أو غير المتقدمين ، ثم تعقبه المغيظون المتلهفون على الأخطاء فعصموه عن حكايات فضلاً عن حكاية ، وعن مخالفات لآرائهم فضلاً عن مخالفة واحدة ؟

صفحات تتجاوز الثلاث إلى الألوف كلها تنزيه للنبي وتعظيم لأصحابه وأنت في لهفتك على المعابة تجحظ عيناك في كل سطر منها فلا تقع على غير تلك القصة التي لا تضير ولو كذب رواتها جميعاً ثم تخرج بها إلى الناس نافخاً في الصور ، متشدقاً بنظائم

الأمور ، ناسياً لصاحب تلك الصفحات كل ما أصاب فيه ، ولو كنت على يقين وأنت كما رأيت لست على أقل يقين !

هب العلامة ابن قاسم الذى شرح شمائل الترمذى قد روى ما رواه خطأ من شعر عروة بن الزبير ، وهب عروة لم يقل هذا الشعر ولم تنشده السيدة عائشة ، فاذا فى الرواية مما لا ينبغى للسيدة عائشة أو مما لا ينبغي للنبى عليه السلام ؟

هل فيها إلا أن السيدة عائشة كانت تثنى على جمال النبى وأن النبى كان يسره هذا الثناء ؟

أهذا الذى لاينبغى لعائشة رضى الله عنها ولمحمد صلوات الله عليه ؟ كلا بل هذا الذى ينبغى لها دون غيره ، ومن أنكره فهو الكاذب الذى لا يفقه ما يقول

وهأنذا أعيدها جهرة بغير سند ولا رواية من شاعر أو فقيه : لقد كانت عائشة تثنى على جمال محمد وكان محمد يرضى عن هذا الثناء

أسمعت يا هذا ؟

مرة أخرى أعيدها لك ولغيرك ممن يشاء أن ينكرها ، فأقول ثم أعيد أن عائشة أثنت على جمال محمد غير مرة وأن محمداً رضى عن هذا الثناء فى كل مرة ، فإن كانت قد بلغت أذنيك فاذهب إلى صورك فانفخ فيه ما بدا لك ، وادع من يستمع لك أو يستجيب

فليس فى القصة ما يدعو إلى الاستنكار والتردد من وجهة الأدب فى حق النبى عليه السلام ، ويجوز من الوجهة التاريخية أن يكون عروة قد ولد بعد العهد الذى ذكره الرواة .

ولكن يستبعد جداً أنه ولد فى سنة ٢٣ التى اعتمدها حضرة البحاثة المتحرى البارع فى تحرى الأعمار والأوقات ، لأن أم عروة أسماء بنت الصديق ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة وليس هو بآخر أولادها ، ويندر جداً أن تلد المرأة بعد الخمسين

ومع كل هذا لا نرى نحن أن نجعل رواية من روايات السنوات والأعمار مبطلة لمقال أو قصيد على سبيل الجزم الذى لا مراجعة فيه ؛ فعمر بن الخطاب نفسه مختلف فى عمره بين خمس وخمسين سنة كما يقول ابن قتيبة ، وثلاث وستين كما يقول الواقدى ومن جاراه . وحديث الإفك نفسه مختلف فى سنته مع اتصاله بتنزيل آيات من القرآن فى موضوع البراءة وموضوع الحجاب ، وتواريخ الآيات أولى بالتمحيص من تواريخ الأحاديث أو تواريخ الأشعار

وقد طبعت لجنة التأليف والترجمة التى تصدر « الثقافة » كتاباً اسمه إمتاع الأسماع جاء فيه صفحة ٢١٥ « أن غزوة بنى المصطلق التى قال أهل الإفك فيها ما قالوا كانت فى شعبان من السنة السادسة » ثم جاء فيه بالصفحة التالية : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عسكر يوم الثلاثاء لثمان مضت من ذى القعدة سنة خمس ، وقيل كانت فى شوال منها ، وقال موسى ابن عقبة : كانت فى سنة أربع ، وصححه ابن حزم ، وقال ابن اسحاق فى شوال سنة خمس ، وذكرها البخارى قبل غزوة ذات الرقاع واستعمل على المدينة ابن أم كلثوم »

أفبعد هذا الاختلاف فى تواريخ القوم للمناسبات التى هى أجل من شعر عروة بن الزبير وأولى بالإثبات يريد صاحبنا أن نطيل الوقوف على عمر عروة لأنه قال كلاماً يجوز أن يقوله كل إنسان ، بل هو معنى كل ما قيل فى غرضه ونحواه على ألسنة جميع المسلمين

إننا أطلنا الوقوف حيث ينبغى أن يطول وقوف الباحث الحريص على كرامة محمد وذويه

أطلنا الوقوف حيث كان أمثال هذا الناقد الحاقد يتقبلون الروايات وهى أغرب ما روى وأنآه عن المعقول وأولاه بإنعام النظر ودفع الشبهات

كانت روايات من أقوال الأقدمين تذكر أن النبى عليه السلام خطب السيدة عائشة وهى فى السادسة وبنى بها وهى فى التاسعة . وكان هذا مجالا لأعداء الإسلام وأعداء نبى الإسلام يبدئون فيه ويعيدون ، ويجدون المستمعين والمتشككين حتى بين المسلمين . فهنا مجال لإطالة الوقوف يسره أمثال هذا الناقد الحاقد مهرولين ويجهلون ما وراءه من الزور الأثيم والبهتان المبين . وهنا وقفنا لنثبت بالعقل والنقل أن محمداً عليه السلام لم يبن بالسيدة عائشة إلا وهى فى السن الصالحة للزواج بين بنات الجزيرة العربية ؛ فأثبتناه على رغم الأقاويل والسنين

أما عمر عروة بن الزبير فهو « الفارغة » التى يتصدر فيها

القصيد المرســـل

لأســـتاذ جليل

أبو على أحمد شوقى لمـا « أصم به الناعى وإن كان أسمعا » أملى الشعور على البراعة هذا الرثاء . وما كنت أنوى والبراعة تكتب أن أبنى شعراً مطلقاً أو مقيداً أو نثراً مسجوعاً أو مرسلاً . وما كنت وقتئذ فى حال تفكر أو تقصد . كتبت ما أوحى إلىّ ، وحين تم الكلام لم أنكره . وما كنت علمت أو قرأت شيئاً مما ذكره العلامة الأستاذ العقاد والكاتب البارع التفنن الأستاذ دربنى . وما فكرت فى هذا الشأن أدنى تفكير . والقريض تركته أو تركنى منذ أكثر من ثلاثين سنة

قال قائلون : هذا شعر لم يقيد بالقوافى[1] ، ووجدت بحثاً فى الشعر المرسل فى « الرسالة » الغراء فرأيت إملاء قطع من رثائى

(١) أخبرنى العلامة الدكتور محمد عوض محمد الأستاذ فى جامعة فؤاد الأول أنه ما كان يميل إلى الشعر المرسل فلما اطلع على رثائى (شوقيا) ارتاح فى هذا النوع

شاعر العرب العظيم . والعربية لا تنكر تفننا فى المقال ، ولا تصد عن التنويع ؛ فقصيد مقيد ، وقصيد مرسل ، وموشح وغير ذلك . ولكل مقام مقتضيه ، وزيادة الخير فى الفنون خير ، والعالم في تبدل ، والدنيا تطير . وإذا تفنن قائل أو أبدع وأجاد فلا تقل له (يا هذا) ضللت أو أخطأت

* * *

[شاعر العُرب قضي ، يافتاة العَربِ[1] ، فالبسى ثوب الحداد !

وابرزى بين الملا حاسرة واندبيه .
زحزحى هذا النقاب لنرى وجه الحزين
أعرضى عن خَفَرٍ عوّدْتِه ، فعيون القوم غرقى فى الدموع
شيمى دمعك هذا قانئاً بنحيب ونشيج وعويل
وابذلى الدمع رخيصاً ؛ إن من تبكين غالِ
بلبل (الكرمة) ولّى ، أين غاب البلبلُ ، أين غاب البلبل ؟!
غادر الطير ثكالى فى حنين وأنين وشجن
زَهر (الكرمة) يبكى بدموع ظاهرات فى الصباح

(١) هي فى هذا المقام مثل ربة الشعر عند الافريق ، قال هومير . ربة الشعر عن أخيل بن فيلا أنشدينا واروى احتداما ويلا

أمثال ذلك الحاقد الناقد لينفوا حديثاً قصاراه أن عائشة كانت تثنى على النبى وأن النبى كان يتقبل منها الثناء ، ولا مسك فى ذلك لأصدقاء ولا لأعداء

فإن طاب الموقف هنا فليقف فيه من يشاء كما يشاء

* * *

وتتمة الجواب بصدد ما تقدم أن نعرج على تعقيب للأديب الذى يكتب فى الثقافة بتوقيع « قاف » يقول فيه عن الشعر « إنه نسج مهلهل ضعيف لا يقع فى نفس أحد أنه من لغة العصر الأول ، أو ما يجرى به لسان شاعر من شعرائه ، وأحسب هذين البيتين — إن صح حدسى — لواحد من شعراء الخلاعة بعد القرن السابع ، قالهما فى أوصاف خد غلام رقيق من غلمان الترك أو الروم يلتمس قربه أو يطلب وده »

فنقول : إن الضعيف حقاً هو هذا النقد الذى ينزه العصر الأول كله عن مواضع النقد وفيه عشرات من قالة الشعر الذين لا يبلغون هذا المبلغ من التجويد والتشبيه ، وفيه من قالة النثر من وهموا أنهم يناظرون القرآن بكلام يزرى به هذيان الأطفال

وقد ينسب ذلك الشعر إلى ناظم فقيه فنصدق النسبة إليه ونصدق أنه يذكر قصص القرآن فى أبياته ليفضل جمال محمد على جمال يوسف . ولأبعد من ذلك جداً عن التصديق أن ينظمه فقيه أو غير فقيه ليذكر بآيات القرآن التى يشير إليها أن غلامه أجل من الأنبياء !

فإن كان فرض هذه الخلاعة كلها أسهل وأدنى إلى التقدير عند « قاف » الثقافة فله دينه ، وللأبجدية جماء دين .

عباس محمود العقاد

فهي (الكرمة) آس ، لا اهتزاز ، لا ارتياح ، لا طرب !
بهجة زالت وجاءت وحشة ، وعرا (الكرمة) حزن لا يريم !

مِدْره العُرب فهي يافتاة العَرب ، فالبسي ثوب الحداد !
مَن لشعب قد بدا من مشغب يرتجي شراً لإحياء العرب .
من يبيد البُطْل في الناس مثي ، ويبين الحق يهدي الحائرين ؟
أين شهماً حججٍ قد درأت لدد الخصم عنيفاً تخنع ؟
أين صوّال على الظلم ضحى ، قدع الظلم شباه فانقدع
من لغرب عاسف مغتصب لَصٍّ حق العُرب في الصبح المبين
يا حليفاً والماً ما إن له ، أبد الآباد عهد أو يمين
جيت كذاباً وجيناً عربياً ، ومشى اللؤم مع الخيم الكريم
خاس هذا الغرب بالعهد ، ولم يتنب من دنس الغدر القديم
أيها الظالم ، أرهق سادراً ؛ سيرى الظالم عقبي الظالمين
قد هدانا (أحمد) منهاجها ، سنلبي (أحمد) في كل حين
علم الأقوام قول بيّن ، خطة الأعتاق من رق مهين[١]

* * *

عبقري الشعر ولي يا فتاة العرب ، فالبسي ثوب الحداد
طرفة الدهر التي ضن بها ألف حول ثم جاد
(أحمد) عاد وعاد (البحتري) ورأى القوم (حبيباً) يبدع
مبدع في كل قول قاله ، في قصيد ونشيد ورواية

* * *

نوّر القرآن قولاً فعلاً ، وسما صاحبه في القائلين
إنما القرآن هدًى الناطقين ، إنما القرآن نور العالمين
فتٌّ قول لم يهذبه (الكتاب)

* * *

عبقريات تجلت للورى ، يا لها من فاتنات ساحرات !
فاتت الحسن ، ولاحت عجباً ، هل رأيت الحور في دار النعيم ؟
هل رأيت الحور في جنة عدن ؟
إبنة الدهر ثباتاً وخلوداً ، ونشيد الدهر حزناً وحبوراً[١]
رقية ، سحر ، نعيم ، ولظى ؛ جنة العرب ، جحيم الغاصبين !
إنه الإعجاز قسم الأحدين ، إنه الإبداع حظ المبدعين !
رب أحقاب تقضت ما رأت عبقرياً في شؤون أو فنون
آه من دهر خبيث ناقد ، باخل بالعبقريين ضنين
وبكأن الدهر يخشى النابغين ، فقليلاً في الدجى ما يسفرون
وبكأن الدهر يخشى الخالدين ، فهو لا يبدئهم في كل حين
إنما الدهر خصيم العبقري

* * *

غادة (الضاد) رزاها رازئٌ وهي في سلطانها
زهوها أوحى بنيها نجدة ، وفتى فتيانها
ما رأى الرائي كشوقي فارساً قد جال في ميدانها]

* * *

إن فقدنا في مصر (أبا عليّ) فالعزاء في (عليّ) — علي محمود طه — والرجاء أن يسير في الطريقين : طريقه وطريق (أحمد) ؛ و (أبو محمود) هو الأديب المقتدر بما أعطاه الله لم تزل مصر كعبة الشعر في الشرق (م) وفي كفها لواء الزعامه[٢]

(ط)

(١) ولا يغني المالك كالضحايا ولا يدني الحقوق ولا يحق
ففي القتلى لأجيال حياة وفي الأسرى فدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

(١) كان شعري الغناء في فرح الشرق (م) وكان العزاء في أحزانه
(٢) على محمود طه من قصيدة في رثاء شوقي

علي محمود طـه

شاعر الفن والجمال

للأستاذ دريني خشبة

١ — عبقريته في إكمال أغنية الرياح الأربع ٢ — مشخصات أسلوبه ٣ — بعض صور كتبه ٤ — لقب شاعر اللغة

ليس فرحنا بأغنية الرياح الأربع أنها لشاعر مصري قديم يرجع زمنه إلى أربعة آلاف من السنين ، بل لأنها نظمت بالعربية بعد زمان هذا الشاعر المصري القديم بأربعة آلاف من السنين ؛ وقد نظمها شاعر مصري تسلمها منقوصة فسواها كاملة ، وجعل منها آية فنية مشرقة البيان ، حسنة السبك ، فياضة بالحياة التي تملأ جميع جوانبها

فإن المقدمة القصيرة التي وضعها الأستاذ دريتون للأغنية والتي يقول فيها : « تقوم هذه الأغنية على الحوار فبعد أربع مقطوعات يغني كلا منها فتاة يدخل رجل فيحييهن ويشرع في خطفهن ليستولي على الرياح الممثلة فيهن ، فيغريهن بإثارة الفضول في نفوسهن ، وذلك بأن يعرض عليهن زيارة سفينته ... ولما قوبل طلبه بالرفض ، لم يستسلم للهزيمة كما هو واضح من المقطوعة الأخيرة في الأغنية « إن وسائلي لا تنفد » . ولكن لسوء الحظ لم نعثر على تكملة الأغنية والوسائل التي لجأ إليها الرجل . وأكبر الظن أنها مما يثير الشراهة Gourmandise التي تكشف مواطن الضعف في النساء » . نستنتج أن الفصل الأول والفصل الأخير من تمثيلية الأستاذ علي محمود طه هما من ابتكاره . وأن الفن الرائع الذي لوّن به الفصل الثاني — وهو الفصل الذي تضمن الأغنية المصرية القديمة كلها تقريباً — هو من إنتاج قريحته الخصبة المبدعة . . . أثمره خياله المتجدد ، وسرت فيه بالحياة شاعريته النابضة ، ودوّت فيه موسيقاه بألحان الجمال .

وقد يسأل بعض القراء : وما قيمة هذه الأغنية وماذا تتناوله من مشكلات الحياة ؟ وليس أيسر من الرد على هذا بما ختمنا به مقالنا الأول عنها من أنها سحر وشعر وفن وجمال ... إنها من قبيل هـذه الدرامات الرائعة التي نظمها شيكسبير في صدر حياته . و (العاصفة) هي أقرب أمثلة ذلك ؛ إذ ترتكز على السحر الذي كان يجيده بروسبيرو ، والذي سخر به الريح فأغرقت سفينة ملك نابلي وسلط عليه وعلى أخيه الخائن الروح آريل يسيمها من العذاب ألواناً ، حتى تنتهي الرواية بصلح عام تكون ثمرته زواج ابن ملك نابلي من ابنة بروسبيرو وعودة بروسبيرو إلى ملكه في ميلان . فالموضوع في (العاصفة) موضوع شعري ساحر تجلت فيه عبقرية شيكسبير ، وظهرت في عرضه وتناوله مواهبه التصويرية العالية . وكذلك موضوع أغنية الرياح الأربع . والعجيب أن تكون هذه أولى روايات علي محمود طه المسرحية ويتمها مع ذلك على هذه الصورة الرائعة من الحبكة والحركة والتسلسل والإبداع المتناهي في التصوير واختيار المناظر الخيالية الراقصة ... هذا فضلاً عن بيانه المشرق وديباجته العالية وقوافيه المنتقاة وقوة تدفقه في الحوار وحرصه على موسيقية الأوزان ، بل موسيقية الألفاظ . . . فقلما تعثر على لفظة نابية ، أو كلمة قلقة ، أو جملة لم يحسن الشاعر اختيارها وصقلها وتجويدها . . . وأنا متعمد أن أسوق كل هذا الكلام الذي يشبه الأطراء ، بل هو الإطراء نفسه ، لأذكر سببه ... حقاً إن لهذا الإطراء سبباً طريفاً أرى أن أسوقه هنا ، لأن هنا موضعه ... ذلك أنني تعودت كلما فكرت في الكتابة عن شيء أن أسأل هـذا النفر من إخواني الأدباء الذين أتوسم فيهم إلماماً بالموضوع رأيهم فيما أنا بسبيله منه . وقد سألت هذه المرة كثيرين من إخواني الشعراء رأيهم في علي محمود طه أولاً ، وفي تمثيليته أغنية الرياح الأربع ثانياً ؛ فعجبت إذ وجدت الغالبية منهم تجمع على مآخذ يأخذونها على هذا الشاعر ، منها أنه مولع بألفاظ وعبارات بعينها يرددها في الجزء الأكبر من شعره . فمن هذه الألفاظ « شعشع » وما يتفرع منها ، و « عبقري » وما تصفه من خيال وخمر وموسيقا وجمال ، و « لؤلؤ » وما إليه من لألأ ولألاء ولؤلؤي ، و « تذويب القلب » في الدموع وفي القبلة وفي النظرة وفي الابتسامة ، و « مَرِح » ، فالمجداف مرح ، والحبيب مرح الأعطاف ، والجيد مَرِح ، والقلب مرح ، والشباب مرح ؛ و « مُجَنَّح » فالخيال مجنح والطيف مجنح والسفين المجنحات ، وللريح أجنحة

أي روح خفيـة أي ريح حملتنا بأجنح في الخفاء ؟

و « سلسل » وما يصرف منها ، ومثلها « ضوأ » و « ناسم

وبناسم » و « الأصائل المسجدية » و « الحلجان المسحورة » و « حدائق النسيان » و « الكنوز المرصودة » إلى آخر هذا الثبت الطويل من الألفاظ والعبارات التي تركتهم يحصونها ولا يكادون يفرغون منها لكثرتها . وقد كنت أكتب ما يذكرون منها في ورقة بسرعة فائقة ؛ فلما سكتوا سألتهم رأيهم في هذه الكلمات ، أشرٌّ هي؟ وهل فيها كلة لم يعمل الذوق السليم فيها عمله؟ وعلام تدل هذه الكثرة العجيبة من تلك الألفاظ والعبارات المنتقاة؟ أهي دليل فقر في محصول الشاعر الأدبي واللغوي ، أم هي دليل شيء آخر غير الفقر؟ والمعاني التي تساعد هذه الألفاظ في أدائها؟ ألغوٌ هيَ؟ أم هي من أدق المعاني وأحلاها وأكثرها طلاوة؟ وهل نسينا أن لكل كاتب ولكل شاعر أسلوبه الخاص ، وأن لهذا الأسلوب الخاص مشخصات تشبه علائم الطريق ؛ فهي تميزه وتُعرّف به ... فالدكتور طه حسين مثلاً يلتزم عبارات بعينها يرددها في كل كتبه أو في معظم كتبه ؛ وهو يرددها أكثر مما رددها أي كاتب آخر ، بل لعل معظم الكتاب في مصر وفي العالم العربي لا يرددون من عبارات الدكتور طه حسين شيئاً ، تلك العبارات التي يمرق بها أسلوبه بين مائة أسلوب أو أكثر من ذلك لو أنه وضع بينها .

وكذلك أسلوب الأستاذ العقاد ، ذلك الأسلوب القوي الذي يفيض بفحولة تتعب أفهام القراء أحياناً ، وهو تعب تنتج عنه لذة ذهنية عجيبة إذا استطاع القارىء أن يدرك المعنى الحقيقي الذي يرمي إليه الكاتب الكبير ، فإذا لم يستطع القارىء إدراك هذا المعنى أحس عند تلك الفقرة أو ذلك السطر من كتابة الأستاذ العقاد بحرارة ، لكنه مع ذلك يمضي في القراءة مأخوذاً بالجمال الكلي عن هذه الجزئيات الهينة . وللأستاذ المازني مُشخّصات عجيبة في أسلوبه ، تُميزه من جميع أساليب الكتّاب المصريين والكتاب العرب على حد سواء ، فهو دائماً «يمط بوز» أبطال مقالاته و «يمط شفاههم !» ، وهو مولع بترديد «حلاق الميز» في جميع كتاباته أو في أكثرها ، وفي قصته الجميلة «إبراهيم الثاني» تردد هذا «الحلاق» أكثر من أربعين أو خمسين مرة كما ترددت هذه العبارات مراراً :

« أي نعم ، ليس إلا ، لا تحمل بالك إلى كذا ، من الحزامة أن تصنع كذا ، النبات والنبات ، بامها ، الحب الآخذ بالكليتين ؟ »

ولست أدري كيف يأخذ الحب بالكليتين ، والذي أعرفه هو الحب الذي يأخذ بمجامع القلوب مثلاً . ولأسلوب الأستاذ «المازني» مشخصات أخرى عجيبة سنعود إليها في موضع آخر إن شاء الله

وللدكتور زكي مبارك مشخصات أسلوبية معروفة لقراء هذه المجلة . وقد ظلمه الأستاذ العقاد حين جرد أسلوبه من «مقومات الشخصية» ، ومشخصات أسلوبه أكثرها «أنماط» جامعية .

فهو يكثر من «على التحقيق» و «النص على كذا» ، و «هذا معناه» و «هل يجترى منصف في كذا» و «الحقائق الأدبية» و «في الأثر» و «الوارد هو كيت» ... هذا إلى ما تفيض به مؤلفاته من روح الاعتداد بالنفس والزهو الذي أعجب به من زكي مبارك ولا أعيبه عليه ... ولله ما أظرف ما يجيب به حين يسأل عن هذا فيقول : زمان لا يريد أن ينصفني فلماذا لا أنتصف منه لنفسي !

ولكل من شعرائنا أسلوبه الخاص كذلك ، ولولا خشية الإطالة لضربنا الأمثال الكثيرة لذلك ، وحسبنا أن نشير إلى اشتراك رجلين من أقطاب شعرائنا الشيوخ في فخامة العبارة وقوة النسج وتخير الألفاظ التي تأتي في قصائدهما كأنها خارجة من كَـيٍّ لآلٍ ؛ أما هذان فهما الجارم وعزم ، وإن لم يصعب على الناقد البصير أن يميز كلاً منهما عن الآخر مع اشتراكهما في هذا السبيل .

ومن شعرائنا الشباب عدد كبير يستطيع الناقد كما يستطيع القارىء العادي أن يدل عليهم من أشعارهم وإن لم تحمل أسماءهم ، ومن هؤلاء الشعراء الشباب من أغرم بألفاظ خاصة وعبارات بعينها تشيع في معظم منظوماته ، وهي مع هذا لا تنقص من قيمة شعره شيئاً ، إن لم تكسبه ميزة جديدة فوق ميزاته الكثيرة الرائعة .

(للكلام صلة) دريني خشبة

أعوذ برب الفلق

من شر ما خلق

للكاتب المجهول

صحوت مع الفجر بعد ليلة حمراء ، وهي الليلة التي ولد فيها هذا العام الجديد ، صحوت ظمآن ، ولكني لم أستسغ الماء ، فقد شعرت أنه ذَوْبٌ من ثلوج الشمال ، وعند ذلك هتفتُ :

« أعوذ برب الفلق ، من شر ما خَـلَق » !

ولكن ما هو الفَـلَق ؟

أهو الصبح ؟

وكيف وما كان ليلي إلا صبحاً في صبح ؟

هو إذن « واد في جهنم » ، كما قال بعض المفسرين ، وبالله أعوذ ، فما يدفع شرَّ جهنم غيرُ من خلق جهنم

وجهنم التي أخاف هي الجنية التي أرادت أن تأسرني إلى آخر الزمان ، بالعقد الذي لا ينقضه الأحرار وهو عقد الزواج

في عصرية الأمس قال خالها الفرنسي وهو يراني أضحك معها وألعب :

Je vous souhaite d'être aussi heureux à l'occasion de vos fiançailles que moi durant les 42 anneés de mon mariage.

وقد اعتصر الحزن قلبي في تلك اللحظة ، لأني كنت اعتزمت فسخ الخطبة ، بعد أن رأيت أن خطيبتي تنقلني إلى وطن غير وطني ، وبعد أن رأيت أن أهلهـا صاروا أعزّ عليّ من أهلي

ومن حالي معهـا أدركت السر في أن تحرم الدولة المصرية على سفرائها أن يتزوجوا من أجنبيات

وهل أنسى أني رفضت المشاركة في الاحتجاج على ما صنع الفرنسيون في لبنان ؟

من أجل حبهـا أبيت أن أكتب حرفاً واحداً في تقبيح ذلك الصنيع ، فقد بدا لي غير قبيح ، لأنه صدَر عن أهل سوزان ، وصدّق شاعرنا العربي حين قال :

ومن بينات الحب أنْ كان أهلها
أحبَّ إلى قلبي وعينيَّ من أهلي

إن الدرس الذي تلقيته عنهـا يفوق جميع الدروس ، فقد بدأت أومن بأن من يتعلم لغة أجنبية يهاجر عن وطنه بطريقة خفية ، وبدأت أفهم كيف صارت الوطنية شريعة عند الفرنسيس والإنجليز والألمان واليابان

أولئك أقوام لا يعرفون غير لغاتهم ، فهم في أمان من احتلال الأفكار والآراء

وهل كان من العبث أن يقول جماهير المشرّعين من المسلمين بعدم جواز الصلاة بغير اللغة العربية ؟

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يقبل الصلاة بأية لغة وبأي صـوت ، ومن المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يسمع دبيب النمال كما يسمع قعقعة الرعود

فكيف أوجبوا أن تكون الصلاة باللغة العربية ؟

إنهم أرادوا إنشاء قومية لها لغة واحدة ، ودينٌ واحد ، لتأمن احتلال الأفكار والآراء

ذلك درس تلقيته عن خطيبتي ، الخطيبة التي ودعتها عنـد انتصاف هذا الليل ، وإن لم تتلق مني أي جزاء

قالت ونحن نفترق : لن تراني بعد هذا الليل !

فقلت : سنلتقي بأقرب مما تظنين ، فلا بد للجمر من وقود ، وأنت الوقود

وما ذا تريد أن تأخذ مني ؟

ألا يكفي أنها صيرتني أشهر الدعاة لوطنها الغالي . الغالي عليّ وحدي من أجل حبها فما تألم روحها يوم سقوط باريس كما تألم روحي . ولا هفا قلبها على فرنسا الجريحة كما هفا قلبي

وأنا برغم بخلها بمَنٍّ على روحها اللطيف ؛ فقد علمتني كيف أدرك قيمة الصورة التي ساقها شاعرنا العربي حين قال :

تعطيك شيئاً قليلاً وهى خائفة   كما يمس بظهر الحية الفَـرِقُ

لن ينقضى عجبى من الفروق بين الأرض والناس

أرض فرنسا هادئة من قديم الزمان ، وهى قليلة التعرض للزلازل والبراكين ، وقد رأيت بعيني كيف جَـلَّدوا عِرقاً نَبض من نهر السين وهم يُجِـرُّون من تحته قطار المتروبوليتان ، فكيف يكون أبناء تلك الأرض الهادئة الثابتة نوّاراً ومتقلبين فى أكثر الأزمان ؟

وأرض اليابان معرضة فى كل وقت للزلازل والبراكين ، ومع هذا عُرِف اليابانيون بالقرار والاطمئنان ، على اختلاف الأحداث والأزمان ، فما هذا الذى نرى من الفروق بين الأرض والناس ؟

ولكن كيف عرفتُ أن اليابانيين أهل قرار واطمئنان ؟

كيف عرفت ذلك ولم أزر اليابان ، ولم أعرف من أوصاف أهلها غير أشياء لا تتصل بأعماق النفوس ؟

لو كان لى حظ التعرف بصديقة يابانية لأدركت شيئاً من السريرة اليابانية ، على شرط أن أتكلم لغتها الأصلية

اللغات أنفاس ، فلا تصدقوا من يزعم أنه صافح روح شاعر وهو يقرأ شعره مترجماً إلى إحدى اللغات ، ولا تصدقوا من يتحدث عن بلاد زارها وهو يجهل لغتها كل الجهل أو بعض الجهل ، وإنمـا نصصت على « بعض الجهل » ليفهم ناس من خلق الله أن الذى لا يتعمق فى لغة من اللغات لا يجوز له أن يقول إنه يعرف تلك اللغة ، فالمعرفة الناقصة أخطر من الجهل لأن الجاهل يقف عند حده فلا يتزيد ولا يستطيل ، أما ناقص المعرفة فقد يوهمه الغرور أنه أعلم العلماء ، فيؤذى نفسه قبل أن يؤذى الناس

وخطيبتى التى فارقتها بالأمس هى إحدى بنّيات لطيفات من اللواتى عرفت فى القاهرة أو فى باريس ، وحالى معها كان عجباً من العجب ، فقد رضيت عنها ورضيت عنى ، مع أن حياتنا سلمت من جميع الأسواء الروحية والوجدانية ، فى زمان لا تأنس فيه روح إلى روح إلا بمعاقرة الأهواء

كان الزواج هو الغاية التى نريد ، وقد كان يجب أن نسارع قبل أن تفضحنا الأقاويل ، فما الذى وقع فى تلك الليلة الحمراء ، وقد سبقته تماهيد ؟

بدا لى أن لجاجة العاطفة وصلت إلى أبعد حـدود العنف ، فرأيت أن أستعير خيالاً من العقل الذى عشت به سنين . وهل بقى لى من العقل إلا طيف من خيال ؟

فكرت فيما تمناه لنا خالها العزيز ، وقد عاش اثنين وأربعين عاماً وهو سعيد بالزواج . ثم افترضتُ أن سعادته الزوجية دامت لأنها بُنيت على الهدوء ، والعاطفة الهادئة تَبنى برفق ؛ فمالى أتعرض لعاطفة مجنونة الجموح ؟ وكيف أسمح لهـذه الجنية بأن تزلزل الخيال الباقى من عقلى !

لقد راعنى بكاؤها فبكيت

قالت بصيغة الاستفهام لا التقرير :

Tout est fini entre nous?

فأجبت بالصمت

ومن قال إنى سأرجع ؟ ومن قال إنى سأراجع ؟

ذلك فراق ، ليس بعده تلاق

لن يؤذينى أن تخرجى من سمائى ، فإنى واثق بأنى سأجد هواى حين أشاء ، وإنما يؤذينى أن أتصور أنك يئست من وفائى ، وأنك صرت يتيمة بعد أن خمدت نيران أشواق ، ولن تخمد نيران أشواق

لن يصلح ما بيننا إلا إن سمعت شكواى : هذا الصدر يسير عارياً فى كل يوم ، كسائر صدور النساء فى هذا الجيل ، فكيف يهادن جميع الرجال ، ويحاربنى وحدى ؟ وهذه العيون توجه نظرات وغمزات ، ولا تأسر أحداً ، مع أنها تخاطب جميع الخلائق ، فكيف تأسرنى وحدى ؟

قلبى هو القلب ، وجمالك هو الجمال ، والناس ما عدانا خيال فى خيال

لا تسأليني عن حالى ، فأنت حالى وأحوالى ، وأنت ماضى وحاضرى ومستقبلى ، وأنت ضميرى المركوز فى ضمير الوجود

لن أيأس منك ، ولن تيأسى منى ، ولن يقول قائل

إنى فارقت هواى فى لحظة من لحظات الغضب أو العناد أو العتاب

أنا حاربت فرنسا وهى صحيحة ، وسالمتُها وهى جريحة ،

وأنت الخيال الزائر من ذلك البلد المحبوب

لن أشمت بفرنسا مع الشامتين ، ولن أذكرها بغير الجميل ،

وإن جانبتِ الجميل

قال الجنرال دى جول : لبنان وديعة فى يدى وسأسلِّمه لفرنسا

يقول هذا القول وهو مغلوب ، وتلك غاية الغايات فى صدق الوطنية ، وأنا أمجِّد هذه الوطنية ، وأتمنى مثلها لنفسى

إن الاستعمار من أنصبة الأمم القوية ، فتى نكون من المستعمرين ، كما كان الآباء والأجداد ؟

آفة الاستعمار هى التسلط الغاشم ، تسلط الحاكم الجاهل الذى يقول كما قال بعض حكام فرنسا فى الهند الصينية :

Je suis le maître

ولا بدَّ لنا من استعمار نجرِّب فيه أخلاقنا السياسية ، وفى السياسة أخلاق ، إذا تولاها عظماء الرجال

والاستعمار لم يَعُد صعباً كما كان قبل أعوام قصار لا طوال ، كان الاستعمار يحتاج إلى جيوش برية وبحرية ، وهو بعد اليوم سيكون فى ميدانين اثنين : ميدان الأدب وميدان الاقتصاد ، وسلاح الأدب هو الصدق ، وسلاح الاقتصاد هو الأمانة ، فلنحرص على أن نكون الصادقين الأمناء

أما بعد ، فأنا لا أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، وإنما أعوذ برب الفلق من خير ما خَلق ، وهو الجمال

ومعنى هذا أنى سأراجع خطيئتى الغالية ، وهى الفتاة اللثوغة الراء

إنها تحاول أن تنقلنى إلى وطنها ، وأنا أحاول أن أنقلها إلى وطنى ، وسنرى بعد قليل مَن الغالب ومَن المغلوب

للشَّعر فى رأسها بريقٌ سرقتْ شعاعه من نيران قلبى

والتموج فى خدودها مسروق من تموج أشعارى

وسحر عينيها الزرقاوين منهوبٌ من سحر عينىَّ الخضراوين

وتبارك الذى تفضَّل فجمَّل لون عيونى مما يهيج الحيات السُّود

سنفترق ؟ سنفترق ؟

هو ذلك إن جاز أن تزهد العيون فى الضياء

يابنت فرنسا الغالية ، تذكَّرى لياليَّ وأيامى ، وارحمى مَنْ يصعب عليه أن يجرحيه ، وهو الصديق الأوحد لوطنك الجريح

لن نفترق ، لن نفترق ، وهل نستطيع أن نفترق ؟

وإذا أرادت الطبيعة أن نكون خائنَيْن ، فلنكن خائنين ، لنتحرر من مواثيق الجهلاء ، وما هى الطبيعة التى يتحدثون عنها جاهلين ؟

الطبيعة هى الصدق فى تلوين ما خلق الله من حقائق الوجود وسيكون هوانا تعبيراً أبديًّا عن ضمير الوجود ... ومقالتى هذه تصويرٌ لمحنة روحية لن تخمد قبل أن تخمد النيران الصوارخ فى ضمائر الجبال .

« الكاتب المجهول »



ـ الراجل ده ياكونه انفتح له كنز ياكونه كسب الدربى

ـ لاكده ولاكده ... ده اشترى حتة من اراضى الأوقاف

كتب وشخصيات

٤ — الصديقة بنت الصديق ... للعقاد

للأســتاذ سيد قطب

مدرسة العقــاد

فى الأدب والحياة

كل ما قلته عن « حدود المدرسة الأدبية » فى كلمة سابقة من هذه الكلمات ، يمكن تطبيقه بلا تحفظ على « مدرسة العقاد » ؛ فهى مدرسة فى الأدب كما أنها مدرسة فى الحياة ، يلتقى منها تلاميذها على سَنن واضح ونهج صريح ، ويجدون فيها تفسيراً معيناً للحياة والفنون ، يشتمل نوع الإحساس ولون التفكير ، وطريقة التعبير ، بل يشتمل فوق ذلك قواعد المنطق والسلوك ، وتقويم الأشياء والأشخاص ، وتقدير الحوادث والأعمال !

وهى مدرسة متبلورة ، واضحة السمات ، لا يجد الناقد مشقة ولا عسراً فى اختيار عنوان لها ، يمثل ويلخص أكبر ما تستطيع العنوانات تمثيله وتلخيصه

. هى مدرسة « المنطق الحيوى »

والنسبة هنا إلى « الحياة » وإلى « الحيوية » جميعاً ... إلى « الحياة » لأن مرد الحكم على كل قول وكل عمل هو ما تقوله الحياة وما تصنعه ، ومنطقها هو المنطق المطاع فى جميع الأحوال .

كل ما تصنع الحياة يُرجّى من بنيها قبوله واغتفاره
فإذا أنكروا قبيحاً ، فقُبـ ـح من الموت لونه أو شعاره

وإلى « الحيوية » لأن مرد الحكم على كل قول وكل عمل هو باعثه ، ومدى الحيوية فى هذا الباعث . وقد تتشابه مظاهر الأقوال والأعمال ولكنها تتفق فى « الرصيد » المكنون لها من الباعث الحيوى ليتوحد الحكم عليها ، وقد تتفق مظاهرها ولكنها تختلف فى الرصيد فيكون ذلك مناط الاختلاف

أستاذ هذه المدرسة الأعظم هو الحياة ذاتها ، لا الفكر المجرد ، ولا المنطق الذهنى ، ولا مواضعات المجتمع الاصطلاحية ، ولا قواعد الخلق المتعارفة ، ولا المذاهب الفنية المنوّعة ... إنها ترجع إلى النبع الأول تستقى منه ، وإلى الناموس الخالد تتوخاه ، ترجع إلى الحياة الطبيعية فتتلقى عنها مؤثرات الإحساس ، وقواعد المنطق ، وطرائق التعبير ، كما تتلقى أصول السلوك ونواميس الآداب وقوانين الأخلاق سواء بسواء .

ولكن عدداً من المدارس يمكن أن يتتلمذ على الحياة ثم يختلف فى مناهج الدراسة . وهنا تسعفنا نسبة المدرسة العقادية إلى « الحيوية » فى تحديد المنهاج . فالحيوية الفائضة المتدفقة ، الحيوية الظاهرة والباطنة ، حيوية الحس والوجدان ، حيوية الطبع التى تفيض على الحواس والذهن والضمير فى آن ... هى السمة التى تمتجب بها مدرسة العقاد ، والتى تصدر عنها فى السلوك والاعتقاد ، وفى الفنون والآداب

ولما كانت الحياة هى الأستاذ الأعظم للمدرسة ، فلا عجب أن يكون طابعها هو الاستقلال فى التلقى عن هذا الأستاذ — فى حدود السمات العامة لها — وأن يكون عمل العقاد فيها هو عمل الرائد الذى يكشف النبع ، ويعبد إليه الطريق . وهناك يلتقى تلاميذه ومريدوه — وهو معهم — بين يدى الأستاذ الأعظم . وفضله عليهم هو فضل السبق والإجادة ؛ وعملهم معه هو عمل المتذوق الفاهم المريد ، لا عمل المقلد الناقل المقود . فليس بتلميذ أصيل فى مدرسة العقاد من يغفل عن نفسه ليقلده ، ومن يسلك طريقه ولا يستمد من النبع الخالد معه ، لأنه إنما يضيع فى هذا السلوك سمة المدرسة الأصيلة ، وهى سمة الاستقلال فى الأخذ المباشر عن الحياة .

***

والعقاد — رائد هذه المدرسة — هو ابن الحياة البار ابن هذه الحياة القائمة على هذا الكوكب ، لا أية حياة أخرى فى أى كوكب آخر ، هذه الحياة بقيودها وضروراتها ، وبآمالها وأشواقها . الحياة الظاهرة للحس واللمس ، والمكنونة فى القلب

والضمير . وهو — قبل كل شيء — إنسان حي ، ملء إهابه حياة ، بل هو رسول من رسل الحياة المفوضين ، وداعية من دعاتها المخلصين

وما عن ضيق في آفاق النفس والحس تستغرق الحياة حس العقاد ونفسه ، ولكن عن سعة وضخامة في هذه الحياة تستغرق الحس والشعور

يا طالباً فوق الحياة مدّى له يسمو عليها ، هل بلغت مداها
ما في خيالك صورة تشتاقها إلا وحولك لو نظرت تراها

على أننا لا نعتمد في تقرير هذه الحقيقة على ما يقول ، فقد يستوحي الأديب قراءاته أو أفكاره ثم يقول ! ولكننا نعتمد على الإنسان الحي في العقاد ، وعلى سلوكه في حياته الشخصية والسياسية والفنية ، وعلى انتباهه الحاد لكل نبضة حية في نفوس الآخرين وسلوكهم ، ولكل التفاتة منهم إلى الحيوية النابضة في الكون والحياة . وذلك هو البرهان الحي الصحيح في فهم الطبائع والخصائص والاتجاهات .

وأدوات الاتصال بالحياة عند العقاد هي حواس يقظة متفتحة ، تؤدي إلى حس متوفر مكتمل ، يفضي إلى وجدان زاخر عميق ، ولهذه الأدوات كلها مدد من بداهة الطبع وومضات الفكر ، وسبحات الروح ، في توازن وانسجام . وإن الاتصال بينه وبين الحياة ليتم تارة من الخارج إلى الداخل ، وتارة من الداخل إلى الخارج (إذا لم يكن بد من هذا التجسيم) ... حاسة توقظ حساً فيذكو ويتوهج ، وحس يثير وجداناً فيشبع ويفيض . أو وجدان ينفعل ليوقظ الحس فيفتح الحواس . وهذا وذلك على حسب الحالات النفسية وعلى حسب المؤثرات المختلفة . وإن المنافذ لمفتوحة علواً وسفلا ، بل لا علو ولا سفل ، إنما هي قوة واحدة متعددة المنافذ مشتبكة المسالك ، متصلة بالحياة ، تلتقي فيها الأرض بالسماء ، بل لا أرض هناك ولا سماء ، إنما هو عالم واحد والروح والمادة مظهران لحياة واحدة و « الدنيا جمال نصل إليه من طريق الضرورة ، وروح نلمسها بيد من المادة »

وهذا العالم الواحد هو الذي ندرك الظاهر منه بالحس والحواس ، وندرك المكنون منه بالبداهة والوجدان ، أو ندركه ظاهراً وباطناً في لمحة واحدة بجميع هذه الأدوات ؛ فما ظاهره إلا رمز لمكنونه . وقيمة هذا الظاهر مستمدة مما يرمز إليه من مكنون . وكلاهما حق وصدق لأنهما شيء واحد في النهاية !

قالوا الحياة تشور قلنا فأين الصميم
إن الحياة حياة ففارقوا أو أقيموا

ولقد كان العقاد — بما فيه من يقظة الحس وقوة الحواس — وشيكا أن يبذل إعجابه كله للحياة المحسوسة الظاهرة وللحيوية المتدفقة في الحس والنزوة ، لولا قسط من « الصوفية » — ولا يعجب أحد لهذه الكلمة — ففي العقاد إيمان عميق بقوة مجهولة تصرف الحياة وتسيطر على أقدار الفرد والنوع (والصوفية في أساسها البسيط هي هذا الإيمان بالمجهول) . ولكن هذه القوة المجهولة التي يؤمن بها العقاد إنما تصرف الحياة وتسيطر على أقدار الفرد والنوع ، لمصلحة هذه الحياة نفسها وللرقي بالإنسانية في معارج الكمال ، لا لغرض آخر من الأغراض التائهة المجهولة !

هذا القسط من الصوفية — بهذا المعنى — يمتزج بالحيوية الحسية ، فيخرج منهما مزاج جديد فيه من هذه وفيه من تلك على غير تحيز بينهما ولا انفصال

ولقد كان العقاد كذلك — بما فيه من صحو الذهن ، ويقظة الوعي وشيكا أن يبذل قواه كلها للفكر والمنطق ، لولا فيض من حيوية الطبع يجرف قوى الذهن والوعي لتستحيل جنوداً لهذا الطبع الحي ، تضرب بسلاحه ، وتستمد منه القوة وله عليها السيطرة في النهاية !

وكثير من الفنانين يقوم في نفوسهم صراع بين مثلهم العليا وبين سلوكهم في الحياة . بين ما يصطرع في كيانهم من غرائز يستقذرونها وما يحلق في أرواحهم من أشواق يهفون إليها ؛ فأما العقاد فقد عقد صلحاً مبكراً بين غرائزه ووجداناته فهو لا يفعل ما يستقذره ولا يستقذر ما يفعله ، وبين ذلك قوام !

وللحيوية عند العقاد شفاعتها الحاضرة فيما تأخذ وما تدع

من الأمور ... أأقول شفاعتها ؟ ألا إنهـا ليست فى حاجة إلى الشفاعة ؛ فهى نفسها الشفيع الذى لا يرد له كلام ، والمفوض الذى لا يسأل حتى عن أوراق الاعتماد .! وليست هى إذن فى حاجة إلى الشفاعة والاعتذار بقـدر حاجتها إلى الثناء والإطراء . وهكذا يعجب بمحمد فى الأنبياء ، وعمر وأبى بكر والإمام فى الخلفاء ، وبالصديقة بنت الصديق فى النساء ، كما يعجب بالمتنبى وابن الرومى فى الشعراء ، وبنيتشه وجيته فى الأدباء ، وبسعد ومصطفى كامل فى الزعماء ... وهؤلاء وأولئك وسواهم ممن نالوا إعجابه ، إنما يلتقون أولاً فى صفة الحيوية ، ثم يختلفون فى مدى هذه الحيوية ونوعها ، وفى اتجاهها ومظاهرها كل حسب وظيفته فى الحياة

وإن إعجاب العقاد بالحيوية ليطرد فتنشأ عنه آراؤه فى الحياة والأخلاق ، وفى الانفعال والسلوك ، وفى الأحداث والأشخاص ، وفى الفن والنقد . وما من رأى له فى المدارس الأدبية وفى طرائق الأدباء ، وفى الفن والسياسة وفى الارتياء والاعتقاد ، يبهم أو يستغلق إذا عالجه الناقد بهذا المفتاح !

أعمال العقاد الفنية لتؤلف جميعها نشيداً واحداً مطرداً فى تمجيد الحيوية بكل معانيها وأشكالها ، منذ الجزء الأول من ديوانه إلى الجزء الأخير ، ومنذ « خلاصته اليومية والفصول » حوالى سنة ١٩١٤ إلى مؤلفاته الأخيرة سنة ١٩٤٤ . وتلك علامة الصدق بلا جدال

وإنه ليسير فى فلسفته الموحدة ، فى طريقه المستقلة ، فيلتقى بالكثير من الأدباء والفلاسفة والمفكرين فى الشرق والغرب ، ولكنه لا يساير أحداً منهم إلا إلى المدى الذى يتفق مع فلسفته الخاصة ، ثم يفترقان فيمضى هو على نهجه بطريقته ، ويدع صاحبه يمضى لطيته ، فى سلام أو فى خصام ! وهنا يقول من لا يلتفتون لغير الظواهر : إنه يأخذ من هذا أو من ذاك على معنى غير معنى الدراسة والالتقاء

ولا بد قبل أن نختم هذه الكلمة أن نلاحظ بحق سمة فى النفس والفكر تجعل هذا الرجل ذا الشخصية الواضحة والفلسفة الخاصة يستمع ويهش ويتجاوب مع جمع حاشد من أنماط الشخصيات والفلسفات

من المعرى الذى يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به
أبر من درهم تعطيه محتاجاً

إلى المتنبى الذى يقول :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

ومن ماكس نوردو إلى شوبنهور ، ومن تاجور إلى نيتشه ، ومن جيتى إلى توماس هاردى ، ومن خالد بن الوليد إلى عمرو ابن العاص ، ومن مصطفى كامل إلى غاندى ، ومن عمر بن أبى ربيعة إلى جميل بثينه ... إلى آخر هذه الشخصيات التى لا تقل الفوارق بين كل اثنتين منها وبين كل واحدة منها والأخرى عن الفوارق بين المعرى والمتنبى فى شتى الاتجاهات

ولا بد أن نلاحظ بحق كذلك تلك المقدرة التى تقيم عظمة أبى بكر أمام عظمة عمر الندين المتقابلين فى نوع العظمة ، والتى تفسر تصرف عمر مع خالد ، وتصرف عائشة مع على ، والتى تنصف الإمام من الصديقة ، وتنصف الصديقة من الإمام

وليس هذا عن منطق لبق ، ولا عن مهارة ذهنية ، إنما هى سمة فى النفس ، ورحابة فى الفكر ، وانفساح فى الإحساس ، لرؤية جميع الجوانب ، وتحليل وجهات النظر ، وتفسير جميع النزعات

هذا ولم يتسع المجال لأن نذكر شيئاً عن خصائص العقاد الفكرية ، خصائص التحليل والتعليل ، تلك التى تطرد فى كل ما يكتب ، وإن كان اعتماده الأكبر فى التعليل والتحليل على المنطق الحيوى لا المنطق الذهنى . وخلاصة ما يقال فى دراساته التحليلية أن « برهانه المفصل تابع لاعتقاده المجمل ، وليس اعتقاده تابعاً لبرهانه فى كل حين ، كما يقول هو فى إحدى مقالاته عن نموذج من الناس يستحسنه ويؤمن على طريقته فى الاستدلال

ولم نجل كذلك طريقته فى العرض ، وأسلوبه فى التعبير ، ولعل القارئ يجد شيئاً من هذا فيما كتبناه عند الموازنة بينه وبين المازنى ، وفيما كتبناه فى العام الماضى عن « عبقرية محمد » وهى نموذج كامل لدراسة الشخصيات .

***

إلى الأديب « محمد العلائى »

للدكتور عزيز فهمى

[ذكرى أول لقاء على صفحات الرسالة ، وقد نشرت له (على ضفاف الجحيم) فى العدد ٩٤٠ صفحة ٣٦ قصيدته]

أثرتَ كامنَ أشجانى وآلامى
وَضَجَّ جنبى على « خَفّاقِه » الدامى
يا أيها الشاعرُ المحرومُ لا سَغَبا
— كما تقول — ولكن روحُكَ الظامى
إن « عربدَ الشكُّ » — والتعبيرُ مُبتَكَرٌ —
فى ساعةِ اليأسِ عَرْبِدْ بعض أنغام
فى نورِ قلبِكَ من شمس الضحى عِوَضٌ
فاقبِسْ من النور أو أشرق بإلهام
إن « الحقيقةَ » ظِلٌّ حائل أبدا
يحومُ والنـــاسُ فى ماخور آثام
دون الحقيقةِ ســـدٌّ هائل عَرِمٌ
من التقاليد محفوفٌ بأوهام
وما الحقيقـــةُ إلا ما يُزَوِّرُهُ
خيالُ مُتَّجِرٍ أو عَجْزُ أقزام
غرائزُ النـــاس تأباها مجردة
وَيُدْغِمُ الزورَ منهم كُلُّ هدام !
« خلا المُصلّى » ولا محراب تنظره
وعسعس الليـــل فى بيداء أحلام
وَطُفْتَ بالمعبـــد المحزون تسأله
أين المسيح وأين المبدأ السامى ؟
وتمم الـكاهن الدجال أغنيـةً
وأطفأ الشمع إلا حـــول أصنام
كَفَرْتَ بالإثم واجتاحتك عاصفةٌ
فى لجة الشك حول الساحل الطامى
وَهِمْتَ فى الأرض « مخدورَ المُنى شَرِقًا »
تقول « ياوحدتى » فى ليل إجرامى !
أخى ! وإن لم تصلنا بعدُ رابطةٌ
من الوداد ولم نوصــل بأرحام
عَظَّمْتُ شعرك عذبًا فى تَخَوُّلِهِ
قبل الأوان فلم يُخْطِئْكَ إعظامى
ورق قلبى وراق اللحن فى أذنى
— أنا العنيد — كما يحتج لوّامى
يصيب صممٌ وقرٌ من مباذلهم
إذ يُقحمون ركيكا شر إقحام
كذلك الشعر فاصدح فى خميلته
أعوذ بالشعر من أنغام نظّام !
عَصَرْتَ من كَرْمَةِ الحرمان خَمْرَتَه
ففاحت الكاس فى « جَوًى وأنسامى »
وفى البواكير طعم لا يَلَذُّ به
إلا عليم بطعم الخمر والجـــام
نزحتَ دمعى فليت الدمع يشفع لى
وليت نفسك ترضى بعد إحجام

عزيز فهمى

وبعد ! ألا كلمة عن « الصديقة بنت الصديق » صاحبة المقال ؟ ! إن قلة السطور الباقية لتمجلنى عن كثير ، ولكننى أملك أن أقول : إن عائشة المرأة ، وعائشة الأنثى ، وعائشة المسلمة ، وعائشة زوج النبى ، وعائشة الإنسانة تبدو على أوضح ما تكون فى هذا الكتاب الأخير

ولقد وقع اتفاق عجيب فى موعد هذه الدراسة . ذلك هو التوافق بين السن التى كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يهش فيها لعائشة ويستروح ويتقبل بسرور ونشاط مقتضيات سنها وصباها وبين السن التى يدرس فيها العقاد شخصية عائشة (رضى الله عنها) ، وإنه ليخيل إلىّ أن هذا التوافق كان واضح الأثر فى انفعال العقاد لهذه الشخصية الحلوة الكريمة وصحة فهمه لجوها وتصرفاتها

وهذا الكتاب الجديد امتداد وتكملة لعبقرية محمد ، كما كانت عائشة امتداداً وتكملة لحياة محمد ، وقد جمعهما أسلوب العقاد الفنان على نسق اجتماعهما فى الحياة قبل ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

سيد قطب



حول خلود الروح

عقيدة خلود الروح من العقائد الغامضة المُغلّفة بالأسرار، ولذلك فقد لقيت على مرّ العصور نقداً عنيفاً، وطعناً جارحاً. ولعل أقسى ما وُجّه إلى هـذه العقيدة من حملات، تلك الحملة الشديدة التي شنها عليها الفيلسوف الألماني أرنست هيكل في الفصل الحادي عشر من كتابه « لغز الكون » وقد انتهى هذا الفيلسوف من نقده إلى القول بأن « الإيمان بخلود النفس الإنسانية إنما هو عقيدة تتناقض تناقضا صارخاً مع الحقائق التجريبية الثابتة للعلم الحديث » . ولكن خلود الروح — على الرغم مما أدلى به هيكل وغيره من الفلاسفة — لا يزال حقيقة عزيزة على الإنسان. وحسبنا أن نقرأ ما كتبه الأستاذ زكي نجيب محمود بعدد الرسالة الممتاز تحت عنوان (هجرة الروح) لنتحقق من أن الإنسان لا يسعه أن يطلّق هذه العقيدة، ولو قام على بطلانها ألف دليل! وإذا كان فولتير يقول لنا « إننا إذا فكرنا في البرغوث لم يخطر ببالنا أن له نفساً خالدة ؛ فلماذا إذن أعتقد أن لي نفساً خالدة؟ لماذا يتملق الناس أنفسهم ويعتزون بأنهم هم وحدهم الموهوبون بعنصر الخلود والروحانية؟ لعل السبب في ذلك زهوهم المفرط. وإني أشعر أنه لو كان الطاووس يتكلم لأعرب من إعجابه بنفسه، وادّعى أن مكان النفس من جسمه هو ذنبه الجميل! » إذا كان فولتير يقول هـذا ؛ فإن في استطاعتنا أن نرد عليه فنقول: « أليس أمل الإنسان في خلوده بعد الموت دليلاً على خلوده؟ إن رغبة الإنسان في الطعام ما كانت لتوجد لو لم يكن الطعام موجوداً. فالزهرة والنحلة فانيتان وهما لا تنشدان خلوداً، أما الإنسان فراغب فيه ساع إليه، ويستحيل أن يكون له ذلك ما لم يجد في فطرته وجبلته ما يوحي إليه أنه خالد»

أجل، إن العقائد لا تبنى فقط على العقل، ولكنها تبنى أيضاً على الشعور، وقد فطن إلى هذا أحد الباحثين — وهو سترلانج — Sterillanges — فقال: « إنني أعلم علم اليقين أنه ليس يكفي أن أرغب في امتلاك القمر، لكي ينعطف إليّ هذا القمر، كما أنه ليس يكفي أن أصبو إلى مجد نابوليون لكي يسعى إليّ هذا المجد، ومع ذلك فإنني أقول إنه يكفي أن أرغب في خلود النفس لكي يكون هذا الخلود حقيقة ثابتة لها وجود. فما هو الفارق إذن؟ إنه لفارق كبير، وبيان ذلك أن الرغبة في نيل القمر، والطموح إلى مجد نابليون، لا يعدو كلٌّ منهما مجرّدَ تهاويل شخصية ليست نتيجة لطبيعتي إنْ في كثير أو قليل. أما رغبتي في الخلود فهي ظاهرة أولية عامة لها أساس في الطبيعة الإنسانية كلها »(1)

أما الاعتراضات التي تثار ضد عقيدة خلود النفس فقد تكفل بالرد عليها الكاتب الفرنسي شاتوبريان في كتابه: « عبقرية المسيحية » (القسم الأول، الكتاب السادس، الفصل الرابع) . وهذه الاعتراضات كلها يمكن أن تنحل بسهولة، إذا عرفنا أنه لا يجب علينا أن نتخذ من جهلنا لبعض التفاصيل والجزئيات ذريعة للقول بفساد العقيدة كلها. ويعجبني في هذا الصدد قول ترتليانوس Tertullien : « أرِنِ لي الحالة التي أنت عليها، أقُلْ لك الحالة التي ستصير إليها »

زكريا ابراهيم

حول ختان البنات في مصر

كتب الدكتور الفاضل (ع . أسامة) في هذا الموضوع الهام مقالاً ممتعاً في رقم ٥٤٤ من مجلة « الرسالة » الغراء، وقد ورد فيه بعض نقط دفعتني إلى ما يأتي:

يقول الدكتور الفاضل: « تختص مصر بهذه العادة دون سائر بلاد العالم المتمدن، إذ لا يشاركها فيها سوى قبائل السودان وأواسط إفريقيا » . والواقع أن الشعب السوداني كله مختص بهذه العادة، ولم يستطع الخلاص منها رغم الجهود العظيمة التي يبذلها شبابه وشيوخه بين حين وآخر أملاً في أن يقلع هـذا الشعب المسلم عن هذه العادة الضارة

وقد كتب الدكتور السوداني سيد أحمد عبد الهادي مقالاً عام ١٩٣٩ في جريدة النيل السودانية مشابهاً لما كتب الدكتور

(1) مصادر الإيمان بالله (Les Sources de la croyance en Dieu) ص ٤٣١ ، باريس ، تيهان

أسامة عن هذه العادة ، وبناء على ما جاء فى مقال الدكتور سيد أحمد أفتى فضيلة مفتى السودان بما يحرم ختان البنات بهذه الطريقة التى كتب عنها الدكتوران . وتسمى عندنا (الفرعونية) . والمعروف أنها انتقلت إلى السودان من مصر . وقد كان لإثارة هذا الموضوع آنذاك آثار حسنة ظاهرة ، ولكنها ما لبثت أن اختفت مع مرور الأيام . وأكبر الظن أن الدافع إلى الدكتور السودانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع كان ما تتكبده المرأة السودانية من ألم وصعوبات عند الوضع . الأمر الذى يترتب عليه كثير من حوادث الوفيات بين النساء .

أما سكان أواسط إفريقيا الوطنيون فهم قوم ما زالوا على الفطرة ، ولم ينتشر بينهم ختان البنات والأولاد على أية طريقة ما إلا فى أندر الحالات التى لا تبرر ذكرهم فى كلام الدكتور أسامة . ومع ذلك فقد لا ينعدم بينهم (الخرافات المتعلقة بالاعتقاد فى إصابة بعض النساء بالجن والمشايخ والأسياد ، وما يجده الدجالون من سوق رائجة بينهن باستغلال هذه المعتقدات) ، ولهذه المعتقدات فى أواسط السودان وشماليه أثر ظاهر يماثل أثرها فى مصر ، ولكنها فى جنوبيه لا يوجد لها أثر مرتبط بهذه الناحية

هذا ما عنّ لى أن أذكره شاكراً للدكتور أسامة جهوده وغيرته ، وأرجو أن يوفق فيما دعا إليه . خصوصاً فى هذا الظرف الذى يحتم على أبناء الشرق أن يصلحوا من حالتهم الاجتماعية التى هى أساس كل تقدم يرمون إليه

« وادى حلفا » سليمان بخيت

فى الصديقة بنت الصديق أيضاً

كان الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد منصفاً كل الإنصاف فى اختيار العنوان لرده على المآخذ التى وجدتها أنا وبعض الفضلاء فى كتابيه : « الصديقة بنت الصديق » و « عبقرية الإمام » ، ولكن ما أجاب به عن الأمرين اللذين أخذته بهما لم يصب عين ما أردت منهما ، لأنه جرى فيما أجاب به عن الأمر الأول على مذهب ضعيف للنظّام فى الصدق والكذب ، وهو أن الصدق مطابقة الخبر للاعتقاد ، والكذب عدم مطابقته له . والصحيح مذهب الجمهور فى الصدق والكذب ، وهو أن الصدق مطابقة الخبر للواقع والكذب عدم مطابقته له . فالنبى صلى الله عليه وسلم حين رأى شبهاً بينه وبين ابنه إبراهيم يرى أنه يشبهه فى الواقع ، وعائشة حين قالت له إنها لا ترى شبها بينهما ، ترى أنه لا شبه بينهما فى الواقع ، وفى هذا تكذيب له غير لائق ، ولا سيما أن ألسنة المنافقين كانت تلوك فى أمر مارية حين ساءهم ولادة إبراهيم ما لا كوه فى عائشة ، وهى أكبر من أن تقابل النبى صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذى يرتاح له أعداؤه من المنافقين . وقد قال الأستاذ العقاد : « فالتكذيب هنا إنما يكون إذا قالت إنك يا رسول الله لا ترى شبهاً بينك وبين إبراهيم . أما أن تقول عن نفسها إنها ترى الشبه وهى لا تراه ، فذلك هو الكذب الذى ينبو عنه مقامها » . وإنى أقول إن هذا هو مذهب النظام فى الصدق والكذب بعينه ، ومؤاخذتى للأستاذ العقاد فى ذلك الأمر لا تقوم على أساسه

وأما جوابه عن الأمر الثانى فقد خرج فيه عن الذنب الذى قذفت به عائشة ، وطلب منها النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الخبر أن تعترف به وتستغفر منه إن كانت ألمت به ، فالذنب الذى قذفت به هو الزنا ، وهو يخالف سائر الذنوب فى أنه يندب للحاكم إذا أقر به شخص عنده أن يعرّض له بالرجوع عن إقراره ، فكيف يطالب النبى صلى الله عليه وسلم أن تعترف به إن كانت ألمت به . على أن الاعتراف بالذنب ليس من أصول الإسلام فى شىء ، وإنما هو أصل من أصول المسيحية . وقد جاء فى بعض الأحاديث أن الله يحب من العبد إذا ارتكب ذنباً فلم يفضحه أن يستره عن الناس . فالذى أنكره من ذلك الخبر هو ما فيه من طلب اعتراف عائشة بذنب لا أساس له ، وما فيه من إفادة شك النبى فى براءتها مما قذفت به ، وفى جواب عائشة عن ذلك أكبر دليل على ضعف ذلك الخبر .

عبد المتعال الصعيدى

بشار أم لكثير عزة ؟

في الرسالة (٥٤٣ — ٩٥٩) كتب الأديب عبد الحميد عثمان عبد المجيد كلمة تساءل فيها : كيف أورد مؤلفاً قصة الأدب في العالم الأبيات البائية المشهورة التي نسبها صاحب الأغاني إلى بشار — تساءل كيف نسبا هذه الأبيات إلى كثير عزة ؟ ...

ويظهر أن الخلاف في قائل هذه الأبيات قديم جداً ، وأن الخلاف في القائل واسع لا يقف عند بشار وكثير عزة . والظاهر أن بعض الكتاب القدماء نسب هذه الأبيات إلى ذي الرمة أيضاً ؛ فقد ذكر صاحب مصارع العشاق أن كثير عزة خرج مرة للقاء عزة واشتدت به الحال فأنشد :

يزهدني في حب « مية » معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي الخ

ثم قال : « هكذا رواه ابن اسحق ، وقال الشهاب محمود بذلك ونقل في الطبقات الأبيات إلا أنه قال[1] :

يزهدني في حب « عزة » معشر . ثم قال هذه الأبيات لكثير عزة ، وقد توهم قوم أنها لذي الرمة بدليل قوله :

يزهدني في حب « مية » معشر ، وليس كذلك . وإنما كان سهواً

هـذا كلامه بالنص ومنه يعلم أن هناك من نسبها إلى ذي الرمة ، ولكنه رحمه الله يجزم — كما ترى — أنها لكثير عزة ، وهـذا الجدل والدفع والجذب يقوم ، مع أن الأصفهاني ذكر الأبيات في شعر بشار بغير خلاف !

وليس هذا بأول خلاف ولا بآخر جدل يقوم على بيت من الشعر وتعيين صاحبه . والقطع برأي في مثل هذه المسائل يحتاج إلى شيء من الدقة وشيء من التريث . ولا بد من الرجوع إلى كل ما يمكن الرجوع إليه من المراجع والموسوعات

برهان الدين الداغستاني



الاعتراف ...

للأديب الفرنسي جي دي موبسان

بقلم الآنسة درية رستم

كانت مرجريت دي تيرول تعاني سكرة الموت وهي بعد في الواحدة والخمسين من سني حياتها ؛ إلا أنها كانت تبدو لرائيها على الأقل في الخامسة والستين ... وراحت تتنفس وهي أشد اصفراراً من أدوتها ... تخالج جسدها رعشات هائلة ... شاحبة الوجه ... زائغة البصر ، كما لو كان شيئاً هائلاً يلوح لها . وراحت شقيقتها الكبرى « سوزان » تنتحب ، وهي تكبرها بعشر سنوات ، وكانت جالسة بالقرب من السرير ، وكان بالقرب من فراش المحتضرة منضدة عليها مفرش من فوقه شمعتان مشتعلتان ...

كانتا في انتظار القس الذي كان من واجبه أن يقوم بمباركتها البركة الأخيرة ويقدم القربان المقدس . وكان للمسكن ذلك المنظر المشؤوم لحجرات الموتى ، منظر الوداع الذي لا لقاء بعده ... زجاجات الدواء على كل قطعة من الأثاث ... والملابس ملقاة في كل ناحية من نواحي الغرفة ... مدفوعة بركلة قدم أو بضربة مكنسة ... حتى الأرائك كانت في غير أماكنها المعدة لها . نعم فقد كان الموت المروع ثم مختبئاً منتظراً ...

كانت قصة الشقيقتين تستدعي رحمة القلوب وإشفاقها ... وراح القوم يروونها من زمان بعيد وهي بعد تستدر عبراتهم

كانت سوزان في ميعة صباها يحبها فتى إلى حد الجنون ... وكانت تبادله الحب ... وإذ لم يبق على زواجهما غير أيام معدودات مات « هنري دي سابير » فجأة ...

ولقد كان يأس الفتاة قاتلاً حتى لقد أقسمت ألا تتزوج أبداً ... والحق أنها برت بقسمها وعاشت عيشة العوانس ، ولم تشذ عن عادتها مطلقاً

... وذات صباح جاءتها شقيقتها ... شقيقتها الصغرى « مرجريت » ، ولم تكن بعد قد تعدت الثانية عشرة وألقت بنفسها بين ذراعي شقيقتها الكبرى وقالت لها :

يا شقيقتي الكبرى ... إنني لا أريد أن تكوني تعسة ... لا أريد أن تبكي طول حياتك ... أبداً لن أغادرك أبداً ... وأما عن نفسي فلن أتزوج ، وسأظل دائماً إلى جوارك دائماً ... دائماً ... واحتضنتها سوزان متأثرة بهذا الإخلاص من طفلة . ولكن الطفلة عملت بقولها ، وعلى الرغم من توسلات أبويها وتضرعات شقيقتها لم تشأ أن تتزوج ... ولقد كانت جميلة بارعة الجمال ، وردت كثيراً من الشبان الذين كانوا يلوحون أنهم يحبونها ... ولم تغادر أختها مطلقاً !

***

وعاشتا معاً طيلة إقامتهما دون أن تفترقا مرة واحدة . وظلتا متعاشرتين تربطهما عروة وثقى ... إلا أن « مرجريت » كانت تبدو دائماً حزينة مهمومة ... أكثر حزناً من أختها ، كما لو كان من المحتمل أن تكون تضحيتها الغالية قد قوضت حياتها ، وراحت تدلف في طريق الشيخوخة بخطوات حثيثة ، ووخط الشيب شعرها وهي لا تزال في الحلقة الثالثة من عمرها ... دائماً تعاني ، كما لو كان خطراً هائلاً يهددها .

وها هي ذي الآن تموت قبل أختها ! ولم تنفرج شفتاها عن كلمة منذ أربع وعشرين ساعة ... فقط قالت عند الومضات الأولى للفجر : هيا ابحثي يا أختاه عن القس ؛ فإنني مشرفة على الهلاك ...

وبقيت بعد ذلك مستلقية على ظهرها ... تنتفض انتفاضاً مرتجفة الشفتين ، كما لو كانت كلمات هائلة تصعد من أعماق قلبها ، ثم تقف حائرة على شفتيها !

وراحت أختها ، وقد أرمضها الألم ، تبكي بحرقة من خلف السرير ، وهي تردد :

يا مرجو .. يا مرجو التعسة ... يا صغيرتي ، وكانت دائماً تناديها بيا « صغيرتي » ، كما كانت مرجريت تناديها دائماً بيا « أختي الكبرى » ...

وسمعنا وقع أقدام على الدرج . . . وفتح الباب ولاح طفل من الكنيسة ، ومن خلفه قس كهل في لباسه الكهنوتي . وما إن وقع بصر المحتضرة عليه حتى انتفضت ونفرت فاها ، وتمتمت بكلمات غير مفهومة ... وتقدم منها الأب « سيمون » وتناول يدها وقبلها في وجنتها ، وقال لها في صوت حلو النبرات :

— إن الله ليعفو عنك يا طفلتي ... تشجعي ... ها هي ذي اللحظة قد دنت ... تكلمي

... وتمتمت مرجريت التي راحت تنتفض من فرعهـا إلى قدمها ... وراح مهادها يهتز بتأثير حركاتها العصبية

لتجلسي يا شقيقتي الكبرى ... ولتسمعي ... وانحنى القس يأخذ بيد « سوزان » وهي قابعة كعادتها عند قدم السرير وأجلسها على الفوتيل وأخذ بكل يد من يديه يد كل من الشقيقتين، وقال :

رباه ... لتبعث فيها القوة . . . ولتنزح عليها رحمتك ...

وشاءت مرجريت أن تتكلم ، فخرجت الكلمات من حلقها الواحدة بعد الأخرى جزئية متقطعة

عفوك ... عفوك يا أختاه ... لتصفحي عني ... آه لو أنك تعلمين كم كنت أشفق على نفسي من هـذه اللحظة ... طول حياتي ... وتمتمت سوزان من بين عبراتها ...

عم أصفح عنك يا صغيرتي ... وقد منحتني كل شيء . . . وضحيت بكل ما تملكين ... إنك ملاك

ولكن مرجريت قاطعتها قائلة :

خلي عنك

دعيني أتكلم ولا تقاطعيني ... هذا مريع ... دعيني أقل كل شيء حتى النهاية ... دون أن تتحركي . . . إصغي ... إنك تذكرين ... تذكرين هذي ...

وانتفضت سوزان ونظرت إلى شقيقتها التي استطردت قائلة :

يجب أن تدعني لتفهمي ... كنت في الثانية عشرة من عمري حياتي ... في الثانية عشرة فقط وإنك لتذكرين ذلك جيداً أليس كذلك ؟ ولقد كنت مدللة ؛ كنت أعمل كل ما أريد عمله ... أتذكرين جيداً كيف كانوا يدللونني؟ أصغي... حينما جاء لأول مرة كان يحمل باقات نضيرة ونزل من فوق جواده أمام الدرج

ولكنه كان يحمل نبأ إلى والدي ... إنك لتذكرين ... أليس كذلك ؟ لا تقولي شيئاً ، أصغي . . . حينما رأيته ... شعرت كأنني أسرت ، فقد كان جميلاً ، فاتن الجمال ... وظللت واقفة في ناحية من الصالون طوال الوقت الذي كان يتكلم فيه

وزارنا مرات عدة ، فكنت أحدق فيه ، بكل عيني ... من كل قلبي ... فلقد كنت أكبر من سني !

وعاد بعد ذلك كثيراً ... ولم أكن أفكر إلا فيه ... وكنت أقول في صوت خافت :

هذي ... هذي دي سامبير... وبعد فقد قيل إنه سيتزوج منك ... فأصابني لذلك ألم ... أواه !

لشد ما تألمت ... لشد ما تألمت !

وظللت ثلاث ليال متتاليات دون أن يزورني الكري ، وشرع يزورنا كل يوم ، وبعد الظهر ... بعد أن يتناول طعام الغداء ... إنك لتذكرين ... أليس كذلك ؟ لا تقولي شيئاً ... إصغي ... كنت تعدين له « الفطير » الذي كان يحبه كثيراً من الدقيق ... أواه ... إنني لأعرف تماماً ، كيف كنت تقومين بذلك !

وبعد أن كان يرشف قدحاً من الخمر ... يقول : كم هو شهي ! وإنك لتذكرين كيف كان يقول ذلك . . . لقـد غدوت حقودة ... حقودة ... وكان يوم زواجكما ... يقترب حتى لم يبق عليه إلا خمسة عشر يوماً ... غدوت مجنونة ... فكنت أقول فيما بيني وبين نفسي

سوف لا يتزوج من سوزان ... كلا ، لا أريد ذلك ... إنه سيتزوج مني حينما أكبر . إنني لم أجد أبداً من أحبه هذا الحب . . . ولكن . . . ذات مساء قبل عقد زواجكما بعشرة

أيام كنت تسيرين معه ... في ضوء القمر ... هناك تحت شجرة السرو ... شجرة السرو السامقة ... ضمك ... ضمك بين ذراعيه طويلاً ... إنك لتذكرين ... أليس كذلك ؟ ... وكان ذلك محتملاً أول مرة ...

لأنني رأيتك شاحبة الوجه حينما عدت إلى الصالون ... ولقد استطعت أن أرى كل شيء ، ذلك لأنني كنت واقفة هناك على الرصيف ، فتملكني الغضب ... حتى لو كان في استطاعتي آنئذ أن أقتلكما ... لما ترددت في ذلك . قلت فيما بيني وبين نفسي : سوف لا يتزوج من سوزان أبداً ، ولا من أية فتاة أخرى ... غدوت تعسة ... وفجأة وجدتني أندفع في طريق الحقد ... الحقد المروع !

أتعلمين ما الذي فعلته إذن ؟ ... : اصغي . كنت رأيت البستاني يعد كُرات صغيرة ليقتل بها الكلاب الضالة ... فكان يسحق الزجاج بحجر ... ثم يضع الزجاج المسحوق في كرة صغيرة من اللحم ... وأخذت من غرفة والدتي زجاجة صغيرة من زجاجات الدواء وجعلت أحطمها

وأخفيت الزجاج في جيبي وهو لا يعدو أن يكون مسحوقاً لامعاً ... وفي اليوم التالي ... عند ما قمت كعادتك بعمل « الكعك » ، شققتها جميعاً بسكين ودسست الزجاج فيها ... وأكل هنري منها ثلاثاً ... وأكلت أنا واحدة ... وألقيت بالست الباقية في الغدير ... ولقد ماتت الأوزتان بعد ذلك بثلاثة أيام ... إنك لتذكرين ذلك ... أواه لا تقولي شيئاً ... إصغي ... إصغي ... أنا وحدي التي لم تمت ...

ولكنني كنت دائماً مريضة مدنفة ... إصغي ، لقد مات ... إنك لتذكرين جيداً ... إنه ليس في ذلك شيء حتى الآن ... بل إنه بعد ذلك ... بعد ذلك بكثير غدت حياتي كلها مفعمة بالشقاء ، فكنت أقول فيما بيني وبين نفسي : سوف لا أغادر شقيقتي ، سوف أقول لها كل شيء ... عند ما يدهم أحدنا الموت

ولقد كنت أفكر دائماً في تلك اللحظة المرتقبة . تلك اللحظة التي أعترف لك فيها بكل شيء ...

وها هي ذي قد حانت ! هذا مريع ... أواه ... يا شقيقتي الكبرى ... كنت دائماً أفكر ... في الصباح وفي المساء ، في النهار وفي الليل ... أنه يجب علي أن أكاشفك بكل شيء ...

لشد ما تألمت ! انصتي . . الآن يتملكني الخوف ... خوف مروع ، أواه . أخشى أن أراه بعد برهة ... حينما أموت... أتدركين ما أعني؟ أتدركين ... ها أنذا وقد أشرفت قبلك على الهلاك ، أتضرع إليك أن تصفحي عني ، لأنني لا أستطيع أن أموت دون أن أتقدم بعفوك إليه ...

اسأله أيها الأب أن يعفو عني .. أتضرع إليك ... لا أريد أن أموت قبل ذلك

* * *

أخفت سوزان وجهها بين يديها ، ولم تأت بحركة ، وراحت تفكر في فتاها ، وكيف كان من الممكن أن تتعهده بحبها طويلاً ، وأية حياة جميلة تلك التي كانت لها ، وومض خياله لحظة في ذهنها ثم لم يلبث أن اختفى في الماضي البعيد ... مات فتاها! وشقيقتها العزيزان .. كم يمزق موتهما قلبها ... أواه ... صورته ... صورته الحبيبة ... إنها لتحتفظ بها في أعمق نفسها... ثم لم يبق شيء من حياتها كلها ...

وفجأة قام القس ، وصاح في صوت جهوري واضح :

يا آنسة سوزان ، إن شقيقتك تحتضر

وفتحت سوزان ذراعيها ، ووضح وجهها المخضل بالدموع واندفعت إلى شقيقتها وراحت تقبلها بكل قوتها وهي تتمتم ...

إنني أعفو عنك ، أعفو عنك يا صغيرتي !

درية رستم
معهد التربية بالزمالك

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)